رسائل الإصلاح (٤)

التأويل العبثي

للوحي والنبوة والدين

دراسة نقدية لكتاب: بسط التجربة النبوية

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

رسائل الإصلاح (٤)



للوحي والنبوة والدين

دراسة نقدية لكتاب: بسط التجربة النبوية

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *



فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

• ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

• • •

• « التأويل: هو صرف اللفظ من معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان هذا المحتمل الذي يراه موافقًا للكتاب والسنة ».

الشريف الجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦هـ/١٠٧٧ - ١١٤٧م].

• • •

• « ومعنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي.. والقصد من التأويل هو الجمع بين المعقول والمنقول ».

أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ/١١٢٦ - ١١٩٨م].



تمهيد
عن التأويل

مبحث التأويل من المباحث الدقيقة التي اختلفت فيها الآراء، سواء في الفكر الإسلامي أو الأنساق الفكرية الأخرى.. حتى لقد تمايزت فيه الحضارات - وخاصة الغربية والإسلامية..

ولقد نشأت الحاجة إلى التأويل من احتواء ألفاظ اللغة على « الحقيقة » وعلى « المجاز ».. وجاء الخلاف بين المفسرين للنصوص حول حمل اللفظ على معناه الظاهر - الحقيقي -؟.. أم على معناه المجازي - غير الظاهر -؟.. وحول أي الموقفين هو الأدق في الوصول إلى المعنى الذي أراده صاحب النص من وراء هذه الألفاظ؟..

ولقد زاد الخلاف بين الناظرين في النصوص الدينية المقدسة، تبعًا لاختلاف مستويات النظر لدى هؤلاء الناظرين.. فهناك الذين تقنع أفهامهم البسيطة بما تعطيه ظواهر الكلمات والمصطلحات.. وهناك من تبحث عقولهم وأفهامهم - كي تقتنع وتستريح - عن المعاني المجازية الكامنة وراء ظواهر الكلمات والمصطلحات..

ولقد ضاعف من الخلاف حول التأويل - أيضًا -

اختلاف المقاصد لدى الناظرين في النصوص الدينية المقدسة.. فهناك المؤمنون بقداسة هذه النصوص، الباحثون - بإخلاص - عن المعاني الحقيقية والمضامين المناسبة التي جاءت بها هذه النصوص، والتي ترشحها السياقات التي جاءت فيها الألفاظ والمصطلحات..

وهناك الذين يريدون الفكاك من مقاصد هذه النصوص المقدسة؛ إما لعدم الإيمان بقداستها.. أو لانحرافات فكرية ومذهبية.. أو لما أصاب بعض هذه النصوص الدينية من تحريفات، ولما دخل مضامينها من خرافات.. جعلتهم يتخذون التأويل - الذي يصرف الكلمات عن معانيها الظاهرة إلى معانيها المجازية والباطنة - سبيلاً للفكاك من المقاصد والتكاليف التي جاءت فيها..

* * *

ولقد تحدث القرآن الكريم عن أن الله ﷻ قد أنزل في القرآن « المحكم » الذي لا يحتمل إلا معنى واحدًا، والذي لا يجوز فيه التأويل.. كما أنزل فيه « المتشابه »، الذي يحتمل أكثر من معنى، إذ له ظاهر هو حقيقته اللغوية، وله باطن هو مجازه اللغوي.

وأشار القرآن الكريم - في الآية التي عرضت لهذه القضية - إلى الموقف الإسلامي إزاء « المحكم » و« المتشابه »،

فأخبر أن الآيات المحكمات هي أم الكتاب، ولذلك فإن الموقف هو رد « المتشابهات » إلى « المحكمات ».. أي أن الصواب هو الجمع بين المتشابهات وبين المحكمات – وهو الذي عبَّر عنه علماء الإسلام: بالجمع بين المنقول والمعقول.. وليس إحلال المعقول محل المنقول – أو العكس – ولا هو إحلال المتشابه محل المحكم – أو العكس –..

لقد قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

ولقد اختلف العلماء في موضع « الوقف » في هذه الآية، هل هو لفظ الجلالة – [الله] –، فيكون الله ﷻ هو المتفرد بعلم التأويل والمآلات للمتشابهات؟.. أم أن موضع « الوقف » هو [الراسخون في العلم]، فيكون لهم حق التأويل لمعرفة مآلات المتشابهات؟..

وإذا كان الجمع والتوفيق بين الآراء المختلفة – دون تلفيق – هو أسلم المناهج عند وجود الاختلافات، فإننا نستطيع أن نميز في المتشابهات بين ما هو متعلق بذات الله وصفاته وعالم الغيب، مما لا تستطيع الملكات الإنسانية – التي هي نسبية الإدراك – أن تحيط بكنهه وجوهره ومآلاته؛ بل إن اللغة –

التي هي مواضعات بشرية - لا تستطيع التعبير عن الحقائق والكنه والجوهر والمآلات لهذه العوالم.. فذات الله ليس كمثلها شيء، وكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك.. وحقائق عالم الغيب هي مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر.. والعقول الإنسانية - مهما بلغت عظمتها - تقف خاشعة أمام سرادقات مآلات هذه العوالم، مكتفية بما ضُرب لها من الأمثال - لا حَجْرًا عليها، وإنما عجزًا عن إدراك الكنه والجوهر والمآلات -. وذلك مصداقًا لقول الحارث المحاسبي [١٦٥ - ٢٤٣هـ/٧٨١ - ٨٥٧م] - وهو من أعاظم الذين انتصروا للعقل والعقلانية -:

« .. **وأعظم العاقلين عن الله، العارفين عقلًا عنه، ومعرفة به، الذين أقرّوا بالعجز، أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كُنه معرفته** »[١].

هنا - وبإزاء هذه العوالم - يكون الوقف في الآية على لفظ الجلالة - ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

أما إذا كانت المتشابهات مما جاء في أحكام عالم الشهادة ومعارفه وعلومه، المطلوب من الراسخين في العلم استنباط المراد منها، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ

---

(١) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، (ص ٢٢٠)، دراسة وتحقيق: حسين القوتلي، طبعة بيروت، سنة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]. فهنا - في متشابهات الأحكام والمعارف في عالم الشهادة - يكون للراسخين في العلم مجال في التأويل لمعرفة الجوهر والكنه والمآلات.. ويصبح « الوقف » على ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ الذين هم - في كل الحالات - يؤمنون بأن المحكم والمتشابه جميعها من عند الله.

* * *

ولقد تساءل البعض عن الحكمة من وجود المتشابه، الذي يحتاج إلى تأويل؟.. ولماذا لم يأت القرآن كله محكمًا لا يحتاج شيء منه إلى تأويل؟؟.. وكان الإمام البيضاوي [٦٨٥هـ/١٢٨٦م] من الذين أجابوا على هذا التساؤل، فقال:

« إن فائدة وجود المتشابهات المحتملات التي لا يتضح مقصودها إلا بالفحص والنظر، هو إظهار فضل العلماء، الذين يزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها، وفي تحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات » [١].

---

(١) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص ٩١)، طبعة القاهرة، سنة (١٣٤٤هـ/١٩٢٦م).

فهو ميدان للاجتهاد والإبداع، ينمي العقلانية المؤمنة دائمًا وأبدًا.. وبه تظل الاكتشافات لأسرار القرآن وكنوز عجائبه مستمرة دائمًا وأبدًا..

* * *

ولقد كان مبحث التأويل من المباحث التي طرقها علماء الإسلام، من مختلف الفرق والمذاهب، وفيه تمايزت مواقفهم.. إنْ في التعريف للتأويل.. أو في الاقتصاد أو الإسراف أو التوسط في استخدامه..

ومن أشهر الذين قدموا التعريف الدقيق للتأويل:

١ - الشريف الجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦هـ/١٠٧٧ - ١١٤٣م] الذي عرّفه، ومثّل له، فقال:

« **التأويل - في الأصل -: الترجيع. وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتَمل الذي يراه موافقًا للكتاب والسنة. مثل قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [الأنعام: ٩٥] إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرًا، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر كان تأويلًا..** »[1].

٢ - أما ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ/١١٢٦ - ١١٩٨م] فلقد عرّف التأويل بأنه:

« **إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية،**

---

(١) الشريف الجرجاني: التعريفات، طبعة القاهرة، سنة (١٩٣٨م).

من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التَّجوُّز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي.. والمقصد من التأويل هو الجمع بين المعقول والمنقول.. »[(١)].

ومن هذين التعريفين، الجامعين لمعنى التأويل، ولضوابطه - في مجمل تراث الإسلام - يستبين التأكيد على ضرورة توفر الضابط الديني والضابط اللغوي للتأويل.. فليس كل تأويل بجائز، وإنما لا بد لصرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، أن يكون هذا المعنى مما يحتمله ظاهر اللفظ، وأن يكون هذا الاحتمال موافقًا للكتاب والسنة، أي للنصوص المحكمات.. لأن التأويل - في جوهره - هو رد المتشابهات إلى المحكمات، والجمع بين المنقول والمعقول.. أو الجمع بين « المعنى » و « معنى المعنى »؛ بتعبير عبد القاهر الجرجاني [٤٧١هـ/١٠٧٨م][(٢)].

ولأن ابن رشد قد تبوأ مقعد فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء، فلقد وضع للتأويل « نظرية جامعة » لعلها كانت -

---

(١) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (ص ٣٢، ٣٣)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة (١٩٩٩م).

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (ص ٢٦٣)، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٠م).

ولا تزال - من أحكم ما صيغ في هذا المقام..

ونحن نستطيع أن نوجز عناصر قانون التأويل ونظريته عند ابن رشد في عشر نقاط هي:

١ - أن التأويل جائز.

٢ - في المواطن التي يقوم فيها البرهان على استحالة المعنى الظاهر من اللفظ.

٣ - وبشرط تحقق شروط اللغة في المجاز - الذي تُخرج فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها.

٤ - وفيما لم يثبت فيه إجماع يقيني على أن المراد هو ظاهر الألفاظ..

٥ - وبترشيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل في بعضها..

٦ - ومن أجل الجمع بين المعقول والمنقول، لا المقابلة بينهما، والانحياز لأحدهما، تجاوزًا للآخر أو نفيًا له..

٧ - على أن يظل التأويل حقًّا للخاصة، من الراسخين في العلم، لا يُصَرَّح به للعامة، ولا يُثْبَتُ في كتب الجمهور - حتى ولو كان تأويلًا صحيحًا، مستجمعًا لشروط التأويل وضوابطه -.. وبعبارة ابن رشد: « فهذا التأويل لا ينبغي أن يُصَرَّح به لأهل الجدل، فضلًا عن الجمهور، ومتى صُرِّح بشيء من هذه التأويلات لمن هو غير

أهلها.. أفضى ذلك بالمصرِّح والمصرَّح إلى الكفر.. فلا يجب أن تُثبتْ التأويلات الصحيحة في الكتب الجمهورية، فضلاً عن الفاسدة.. وأما المصرِّح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر ».

٨ – أما أخبار عالم الغيب، وكذلك المعجزات، ومبادئ الشريعة، وكل ما لا يستطيع العقل الإنساني الاستقلال بإدراك كنهه، فلقد أوجب ابن رشد أخذه على ظواهره، دون تأويل؛ لأن هذه العقائد – عنده – مما تُعلَم بنفسها، بالطرق الثلاثة للتصديق: الخطابية.. والجدلية.. والبرهانية.. ولذلك – كما يقول –: « لم نحتج أن تضرب له أمثالاً، وكان على ظاهره؛ لا يتطرق إليه تأويل. وهذا النحو من الظاهر إن كان في الأصول فالمتأول له كافر، مثل من يعتقد أنه لا سعادة أُخروية ههنا ولا شقاء، وأنه قُصِد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض في أبدانهم وحواسهم، وأنها حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط.. إن ها هنا ظاهرًا من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله في المبادئ فهو كفر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة ».

٩ – وحتى الحكماء من الفلاسفة – برأي ابن رشد – لا يجيزون تأويل أخبار الغيب ومبادئ الشريعة والمعجزات.. و « لا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل في مبادئ الشرائع، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ وواجب على الناظر في تلك

الصناعة أن يُسلِّم مبادئها، ولا يتعرض لها بنفي ولا إبطال، كانت الصناعة العملية الشرعية أحرى بذلك؛ لأن المشي على الفضائل الشرعية هو ضروري عندهم، ليس في وجود الإنسان بما هو إنسان؛ بل وبما هو إنسان عالم؛ ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلِّم مبادئ الشريعة، وأن يقلِّد فيها، فإنْ جحْدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان، ولذلك وجب قتل الزنادقة.

فالذي يجب أن يقال فيها: إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، فلا بد أن يُعْترف بها مع جهل أسبابها.. ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء تكلم في المعجزات، مع انتشارها وظهورها في العالم؛ لأنها مبادئ تثبيت الشرائع، والشرائع مبادئ الفضائل، ولا فيما يقال بعد الموت. فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية، كان فاضلاً بإطلاق، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين في العلم، فعرض له تأويل في مبدأ من مبادئها، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾. هذه حدود الشرائع وحدود العلماء».

١٠ - ويرى ابن رشد أن الإفراط في التأويل، بعد عصر الصدر الأول للأمة، هو المسؤول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التي شاعت وانتشرت: « فالصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل (التي ثبتت في الكتاب العزيز) دون تأويلات فيها، ومن

كان منهم وقف على تأويل لم يُصرِّح به.

وأما من أتى بعدهم، فإنهم لمَّا استعملوا التأويل قلَّ تقواهم، وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم، وتفرقوا فرقًا. فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة، أن يعمد إلى الكتاب العزيز، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة في شيء شيء، مما كُلِّفنا اعتقاده، ويجتهد في نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئًا، إلا إذا كان التأويل ظاهرًا بنفسه، أعني ظهورًا مشتركًا للجميع.. وذلك أنه لما تسلط على التأويل في هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع، ولا تميز له الصنف من الناس الذي يجوز التأويل في حقهم، اضطرب الأمر فيها، وحدث فيهم فرق متباينة، يكفِّر بعضهم بعضًا، وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعدٍّ عليه.. »[1].

هكذا وضع ابن رشد قانونًا للتأويل، وشروطًا لجوازه، قصرته على ما وراء العقائد ومبادئ الشريعة وأخبار الغيب والمعجزات.. وجعل التأويل فيما وراء ذلك مشروطًا بتوفر الضوابط اللغوية، وبشهادة النصوص المؤولة على أن فيها تأويلًا ظاهرًا بنفسه للجميع.

---

(١) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (ص ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٣٢، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٤٧، ٤٨، ٦٥)؛ و: تهافت التهافت (ص ١٢٤، ١٢٥)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٣م) و: مناهج الأدلة في عقائد الملة (ص ٥١، ٢٤٩)؛ دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم، طبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة.

وجاءت مدرسة الإحياء والتجديد في العصر الحديث، فتبنّت هذا المنهاج المضبوط في قضية التأويل، وقال رائدها جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م].

« .. فالحق: أن لا يهمل النظر، وأن يكون التأويل على خطر. وهذه رتبة الراسخين في العلم، الذين وقفوا على الحقائق بصفاء عقولهم، ثم يقبلون ما جاءهم من ربهم، مع عدم الاستطلاع لما هو دفين تحت حُجُب أستاره »[1].

* * *

لكن تراثنا الإسلامي قد عرف ألوانًا أخرى من التأويل للنصوص، لم تلتزم بهذه الضوابط التي وضعها جمهور علماء الإسلام..

فهناك التأويل الباطني، الذي سلكت طريقه الفرق الباطنية الشاذة، تلك التي ادّعت أن لكل تنزيل تأويلاً، ولكل ظاهر باطنًا.. والتي انفلتت من كل ضوابط التأويل، فأفرغت الدين من حقائق الدين!.

• **فالإسماعيلية** - مثلاً - تنسخ الظاهر بالباطن، حتى أنها تحل شريعة الباطن محل شريعة الظاهر التي جاء بها خاتم

---

(١) جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة (١/٣٨٩)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٩م).

الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ باعتبارها « الظاهر » الذي تُحل محله « الباطن » فتزعم « أن الإمام محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع. وأن الإمام الناطق السابع هو ناسخ عهد، وفاتح لعهد جديد، وهو صاحب شريعة. ولكن ليس معنى أنه ناسخ عهد، أنه ناسخ شريعة. فهو لا ينسخ شريعة محمد ﷺ؛ بل يؤكدها، ويظهر باطنها، بمزيد من التأويل والكشف عن حقيقة التوحيد.

فهو - كما قال الإمام المعز لدين الله الفاطمي [٣١٩ - ٣٦٥هـ/٩٣١ - ٩٧٥م]: « عُطِّلت بقيامه ظاهر شريعة محمد، لما كان لمعانيها مبينًا، ولأسرارها كاشفًا ومجليًا » فالنسخ يتعلق بظاهر الشريعة لا بباطنها »[1].

فهو تأويل نسخ للظاهر؛ كل ظاهرا.

•والنصيرية.. « يصل بها تأويلها إلى حيث تصف الإمام علي بن أبي طالب بأنه « أحد » صمد، لم يولد ولم يلد، وأنه قديم لم يزل، وجوهره نور، ومن نوره تسطع الكواكب، وهو نور الأنوار، تجرّد عن الصفات. يشق الصخور ويسجر البحور، ويدبر الأمور، ويخرّب الدول، خفي الجوهر، وهو معنى.. وهو الذي خلق محمدًا، وسماه « الاسم ». ومحمد هو حجاب علي ومسكنه. ومحمد خلق سلمان الفارسي من نور نوره،

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين (٢/٢٩٣، ٢٩٤)، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٣م).

وجعله « بابًا » له، والمكلف بنشر دعوته، ومن حروف بداية هذه الأسماء الثلاثة يتكون « عين – ميم – سين » وهي قَسَم المستجيب لدعوة النصيرية.. وهناك خمسة أيتام (أي لا نظير لهم) هم: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن رواحة الأنصاري، وعثمان بن مظعون، وقنبر بن كدان الدوسي. وهم الصدورات الخمسة الإلهية والنجوم الخمسة الذين توجه إليهم الصلوات الخمسة اليومية.. »[1]!!..

• والدروز: تؤول الظاهر بالعذاب، والباطن بالرحمة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].. وتجعل لكل « ناطق » « أساسًا »، والأساس يؤول ما جاء به الناطق.. والنطقاء – أصحاب الظاهر –: هم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد.. ولكل واحد منهم أساس يؤول الظاهر الذي جاء به.. فأساس نوح: سام، وأساس إبراهيم: إسماعيل، وأساس موسى: يوشع بن نون من بعد هارون، وأساس عيسى: شمعون، وأساس محمد: علي بن أبي طالب.

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين (٢/٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٨٢، ٤٨٧، ٤٨٨) – وهو ينقل عن كتاب: مجموع الأعياد والدلالات والأخبار المبهرات، لأبي سعيد ميمون بن القاسم الطبراني.

ويؤولون السماوات السبع بالأئمة السبع المستورين.. فسماء الدنيا: إسماعيل بن محمد.

والسماء السابعة: قيام عبد الله المهدي بالأمر.. ثم ظهور الحاكم بأمر الله [(١)]!!..

هكذا بلغت الفرق الباطنية بالتأويل هذا الحد الشاذ.. الذي انفلت من كل الضوابط.. فنسخ الدين، وأهدر المنقول والمعقول جميعًا!..

* * *

وعلى الرغم من أن المادية هي نقيض الباطنية.. إلا أن النزعتين - المادية والباطنية كليهما - تصلان - في التأويل للنصوص الدينية - إلى ذات النتيجة..

- فالمادية، تفرغ النص الديني من حقيقته الروحية لحساب الإغراق في المادية..

- والباطنية، تفرغ النص الديني من حقيقته المادية لحساب الإغراق والغلو في الباطنية والروحانية.. وفي الحالتين يتم تفريغ النص الديني من المعاني الوسطية الجامعة للمنقول والمعقول.. للحقيقة والمجاز.

• ولقد عرفت الحضارة الغربية، منذ جاهليتها اليونانية،

---

(١) المرجع السابق (٢٠/٦٩٤ - ٦٩٦، ٧٠١، ٧٠٢).

مباحث التأويل - الهيرمينوطيقا Hermeneutics - وبسبب من الطابع المادي لتلك الحضارة كان التوجه الأساسي للتأويل فيها هو تفريغ الألفاظ من روحها لحساب جسدها.. من روحانيتها لحساب ماديتها وذلك للتخلص من قداسة هذه النصوص ذات القداسة والسلطان.

ولقد ابتدع التأويل الغربي - كي يستبيح النصوص الدينية - نظرية « موت المؤلف »، وطبقها فلاسفة التنوير الوضعي اللاديني على الكتب المقدسة - وذلك « لأنسنة » الدين والكتب المقدسة، ولجعل القارئ هو « منتج النص »، وليصبح هناك - عمليًا - عدد من النصوص بعدد القراء الذين يتلقون النص الواحد!!..[1].

• ولقد انطلق عدد من الكتاب المسلمين، دعاة التنوير الغربي والفلسفة الوضعية اللادينية، من نظرية « موت المؤلف » وأنسنة الدين والقرآن الكريم والوحي والنبوة، إلى ألوان من التفسير المادي للوحي والنبوة والدين، بلغت في الغلو والغرابة والشذوذ الحد الذي نافست فيه التأويلات الباطنية القديمة!..

- فرأينا من يؤول الإلهيات بالإنسانيات!.. ويحول العلم

---

(١) سيزا قاسم: القارئ والنص: العلامة والدلالة (ص ١٢٤، ١٢٥)، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٢م).

الإلهي إلى علم إنساني!.. ويجعل الميتافيزيقي فيزيقي.. ويحول الدين إلى أيديولوجية، وإلى فكر إنساني!.. ويقول إن الإيمان هو الإلحاد!..

- ومن يجعل الصفات الإلهية صفات للإنسان الكامل!..
- ومن يؤول اللوح المحفوظ بتدوين العلوم!..
- ومن يجعل النبوة قوة مخيلة!..
- ومن يؤول الذات الإلهية بالكفاح المسلح والإصلاح الزراعي!!..

إلى آخر هذه التأويلات، التي انفلتت من الضوابط اللغوية والدينية للتأويل.. فوصلت إلى قمة العبث اللامعقول واللامقبول! [١].

* * *

في ضوء هذه الحقائق عن التأويل.. ومذاهبه وتياراته.. تقدم هذه الدراسة النقدية لكتاب الدكتور عبد الكريم سروش [بسط التجربة النبوية].. والذي مثّل نموذجا للتأويل المادي المغلف بالعرفانية الباطنية للوحي والنبوة والدين.

وذلك لفهم هذه النزعات.. ولتحصين العقل المسلم ضد

---

(١) انظر - في تفصيل كل ذلك - كتابنا: قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

هذه الانحرافات والهرطقات.

سائلين المولى ﷻ أن ينفع بهذه الدراسة.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

١٥ من ذي القعدة ١٤٣١هـ

٢٣ من أكتوبر ٢٠١٠م

أ.د. محمد عمارة

(١)

الكاتب



مؤلف هذا الكتاب [1]، هو الأستاذ الدكتور عبد الكريم سروش:

- مفكر إيراني مرموق.
- وله حضور في إطار اللغة الفارسية وخارجها..
- وهو على خلاف مع الفكر الشيعي الإمامي الإثنى عشري حول الحكومة وولاية الفقيه، وحول كثير من المقولات والعقائد التقليدية للشيعة..
- وللدكتور سروش حضور كذلك وقبول وحفاوة في الأوساط العلمانية والحداثية - الغربية والشرقية -.
- وهو لا يحتل موقعًا رسميًا ولا شبه رسمي في دولة ولاية الفقيه الإيرانية، ولا في جامعاتها أو مؤسساتها الثقافية.. ويتخذ من منزل أحد أتباعه ومريديه منتدى - أسموه « المحمدية »، على نمط « الحسينية » - يلقي فيه محاضراته ويعقد فيه ندواته.. ويجري فيه حواراته..

---

(١) كتاب: بسط التجربة النبوية، ترجمة: أحمد القبانجي، طبعة دار الانتشار العربي، بيروت، سنة (٢٠٠٩م)، وصفحاته (٣٤٧) صفحة.

- ومن كتبه الشهيرة: [القبض والبسط] و [الصراطات المستقيمة] وهذا الكتاب - موضوع هذه الدراسة -..

وقارئ كتب الدكتور سروش يلمس ثقافة واسعة في الفكر العرفاني والصوفي، وفي الفكر الغربي على حد سواء..

* * *



(٢)
المدرسة الفكرية

ومن خلال هذا الكتاب - [بسط التجربة النبوية] - تستبين « المدرسة الفكرية » لصاحبه - وهي مدرسة التأويل لحقائق الدين، وتحويلها إلى مجازات غير منضبوطة بقواعد التأويل العربي والإسلامي، حتى ليفرغ هذا التأويل الدين من حقيقة الدين وثوابته التي تعارفت عليها مختلف الفرق الإسلامية، باستثناء الباطنية في تراثنا القديم.. ومعهم فلاسفة التنوير الوضعي المادي العلماني في الفكر الغربي..

وهذه المدرسة تجعل لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً، وتنفي وجود أية حقائق أو معاني ثابتة في النص الديني..

ومن رموز هذه المدرسة؛ التي ينتمي إليها الدكتور سروش.. والذين أبدى إعجابه بهم - في هذا الكتاب -:

• د. نصر حامد أبو زيد [١٤٣١هـ/٢٠١٠م] الذي حكم القضاء المصري عليه بالردة سنة (١٩٩٥م).

• ود. محمد أركون (١٤٣١هـ/٢٠١٠م) الذي قال عنه الدكتور علي حرب: إن الحداثة عنده معناها تحرير العقل

الإنساني من إمبريالية الذات الإلهية [١]!!

• ود. حسن حنفي، صاحب التأويل الذي يقول: إن اللّٰه لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي خلق اللّٰه!..

والدكتور سروش يتحدث بإعجاب عن نصر حامد أبو زيد، وعن تبنيه لأفكاره، فيقول:

« الدكتور نصر حامد أبو زيد، تعرّض لهجوم في مصر، وله كتاب باسم « مفهوم النص » وهو كتاب جيد، ويطرح في هذا الكتاب مفهوم تاريخية القرآن، وأحد المحاور المهمة في هذا الكتاب أنه يقول: إن الكثير من المفاهيم الواردة في القرآن هي مفاهيم معروفة لدى العرب الجاهليين. وقد ذكرت بدوري هذه الحقيقة في بحث: البعثة وأزمة الهوية » [٢].

كما يستشهد الدكتور سروش بمحمد أركون. وبأفكاره عن أن القرآن مُنتج من النبي وأن الوحي تابع للنبي.. وأنه – [القرآن] – مُنتج تابع للواقع.. وأنه ثمرة مطابقة للواقع والمحيط.. وليس ثمرة للمشيئة الإلهية [٣].

وهي أفكار في التفسير المادي للوحي والنبوة، يتفق فيها سروش مع أركون ونصر أبو زيد وحسن حنفي.. وإن

---

(١) صحيفة: الحياة، لندن، في (١٨/١١/١٩٩٦م).

(٢) بسط التجربة النبوية (ص ٢٢٦).

(٣) المرجع السابق (ص ١٨٥).

غُلِّفت هذه الأفكار بالغلاف « العرفاني - الباطني » عند سروش.. فهم يجتمعون على « أنْسَنَة الدين » و « بشرية الوحي والقرآن ».. وعلى أن النبوة تجربة بشرية عرفانية.. وعلى نفي أن يكون للوحي مصدر إلهي سماوي، ووجود سابق في الغيب واللوح المحفوظ..

ويشير الدكتور سروش إلى مصدر آخر لفكره حول « اعتبار الوحي ظاهرة تتطبق مع المحيط، وتقتبس لونها وصبغتها من البيئة بشكل كامل ».. وهذا المصدر هو نظرية « دارون » [١٨٠٩ - ١٨٨٢م] فيقول:

« إن نظريته - أي نظرية سروش - مستوحاة من نظرية دارون »[١].

تلك هي المدرسة الفكرية للدكتور سروش.. الذي يتميز بالإبحار في الفكر العرفاني - الباطني - وخاصة الفارسي منه -.. لا لأنه أحد العرفاء، وإنما ليغلف النزعة المادية في تفسير الوحي والنبوة والدين بغلالة عرفانية تسوغه لدى قطاعات من المتدينين!.

* * *

(١) المرجع السابق (ص ١٩٠).

(٣)

بشرية الوحي والنُّبوة

والفكرة المحورية التي تدور حولها المقالات والمحاضرات والحوارات المكوِّنة لصفحات هذا الكتاب - [بسط التجربة النبوية] - هي تصوير النبي ﷺ في صورة « العارف » الذي بلغ مرتبة عالية ومتميزة بين العارفين، والذي امتلك قدرة « الكشف » - نتيجة لرياضاته الروحية - فاطلع على بعض أسرار الغيب.. والذي عندما « تغلي شخصيته » يفرز هذا الغليان الوحي والقرآن والرسالة..

فالتجربة النبوية - في هذا الكتاب - هي تجربة « العارف - النبي »، الذي تنتج شخصيته وتفرز - عندما تغلي - أي تبلغ ذروة الكشف - تنتج وتفرز القرآن.. فالقرآن والوحي والرسالة كلها تابعة لشخصية النبي.. وجميعها بشرية.. فليس هناك تنزيل من أعلى، ومن وراء الطبيعة والواقع البشري.. وإنما نحن أمام مُنتج نبوي بشري، يخضع للتاريخية والتاريخانية.. أي أن مضامينه ومعانيه وأحكامه مؤقتة، ومرتبطة بالواقع الثقافي الذي ظهر فيه، والذي هو ثمرة له وانعكاس للحوادث والجدل والمقولات التي شهدها هذا الواقع..

فالوحي والدين « بناء فوقي » للواقع المادي والاجتماعي الذي ظهر فيه.. فهو - بتعبير نصر أبو زيد - « ديالكتيك

صاعد ».. أي ليس تنزيلًا من فوق. ومن ثم فهو تاريخي ككل ألوان الفكر التي يفرزها الواقع..

وبنص عبارة الدكتور سروش:

« عندما يوسوس الشيطان في واقع الإنسان وعمقه الداخلي فكأنه يوحي إليه.. والأنبياء بدروهم يتعرضون لـ « وسوسة المَلَك ».. ثم تعرض عليهم الكشوفات..

ولو رفعنا عبارة « التجربة النبوية » ووضعنا بدلًا منها « الكشف النبوي » فلا نجد تفاوتًا بينهما.. ومن خلال هذا الكشف يتعرف النبي إلى حقائق وأسرار عالم الغيب.. وربما يحصل مثل هذا الكشف للآخرين، غاية الأمر أن كشفهم ناقص وغير تام، وضبابي.. بينما كشف النبي تام.. فالنبي نفسه يمكن أن يصل إلى فكرة معينة ويدرك في نفسه كشفًا عن حقيقة معينة، ويكون هذا الكشف إلهيًا ويطلق عليه اسم الوحي.. إن الوحي نوع من الإشراق الذي يحدث للنبي ويحيط به دائمًا ويقوده في مسيرته فيخط الرسالة.. إن الوحي ليس شيئًا سوى نوع من الإدراك الخالص للنبي..

لقد كانت شخصية النبي بمثابة الخزانة التي تحوي أسرارًا وعلومًا.. وهذه الشخصية عندما تغلي وتفور يطفح الوحي الإلهي من مطاوي كلماتها، بمعنى أن ما يقدمه النبي من معارف الوحي للآخرين عبارة عن غليان بركان وجوده المؤيد والمسدد، وقطرة من بحر معارفه، ولذلك فإن هذا الغليان

وهذا الكلام الوحياني يكون تابعًا له وليس هو تابعًا لهذا الكلام.. لقد كان النبي يمارس رياضة مدة أربعين سنة، ثم تجلت للنبي حقيقة النبوة وصار متوزًا كبوذا.. »(١) - [!!] -

* * *

ولأن الدكتور سروش قد رفض أن يكون الرسول ﷺ بشرًا يوحى إليه من السماء، ومتلقيًا للوحي، ومأمورًا به، وتابعًا له.. وادعى أنه « بشر - عارف » و « كاشف » تغلي شخصيته فتفرز الوحي النابع منها والتابع لها.. أي عزل السماء وأسقطها من الحسبان.. فلقد ذهب فتحدث عن معنى « الإنسان الكامل » الذي وضع النبي ﷺ في إطاره فإذا به يؤله النبي، كي يكون هو المصدر لكل شيء - الوحي والقرآن والرسالة -.. لقد أنزل السماء إلى الأرض - أرض النبي - بدلًا من أن يجعل النبي متلقيًا نبأ السماء، ومبلغًا له، ومبينًا، ومقترفًا به..

وفي هذا « الفكر ».. فليس الله ﷻ هو الذي يرسل جبريل - الذي اصطفاه من ملائكته رسولًا إلى النبي - وإنما النبي هو الذي « ينزل جبريل »!.. وفي ذلك يقول الدكتور سروش:

« إن معنى أن يكون النبي هو الذي يُنزل جبريل عليه.

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ١٩٧ - ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٧، ٣٤٣، ٣٤٢، ٢٢٢).

هو أن دائرة وجود النبي على درجة من السعة والامتداد بحيث أنها تستوعب جبريل أيضًا في واقعها. والتجربة النبوية على قدر من السعة والامتداد بحيث إنها مستوعبة تجربة جبريل فيها، وهذا هو معنى الإنسان الكامل، أي هو الوجود الذي يمثل مظهر الاسم الجامع، وهو محيط بطبقات وعوامل ومراتب جميع الوجودات؛ ولذلك تقع أشكال الحركة والذهاب والإياب في باطنه لا في خارجه، فهو الفاعل والآمر لا المنفعل » [1].

ويذهب الدكتور سروش على درب تأليه النبي - كي يستقل عن السماء - وكي يكون هو الذي ينزل جبريل - وليس الله هو الذي ينزل جبريل - وكي يكون النبي ﷺ هو منبع الوحي ومُنتجه ومُفرزه، لا متلقيه.. يذهب على هذا الدرب - محاولاً الاستدلال - على هذه « الهرطقة » المغلفة بالعرفان - يقول الله ﷻ لرسوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] -.. فيقول:

« عندما يكون رمي النبي هو رمي الله تعالى، فيكون قوله أيضًا قول الله تعالى، ومن هنا فإن فهم النبي بدوره هو فهم الله، والوحي ليس شيئًا سوى نوع من الإدراك الخاص للنبي » [2].

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٣٤٥).

(٢) المرجع السابق (ص ٣٤٣).

ويتجاهل الدكتور سروش:

- أن ليس كل رمي للنبي هو رمي الله.

- وليس كل قول للنبي هو قول الله.. فهناك أقوال للنبي ﷺ فيما هو فيها مجتهد لا مُبلغ.. وفيها يصيب ويخطئ.. وفي أقواله ما هو تشريع بما أراد الله.. وما هو سنة غير تشريعية.. أو سنة عادة وجبلّة.. وهي أقوال لا يصحّ أن يقال إنها قول الله.

- ثم إن الآية: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ تعني أن الأصل هو رمي الله الذي سدد رمي الرسول - فرمي الرسول تابع لرمي الله.. وليس العكس كما قال الدكتور سروش -.

لقد أراد الرجل - في « هرطقته العرفانية » هذه - أن يجعل النبي مستقلاً عن السماء؛ ليصل إلى بشرية الوحي والقرآن والرسالة - ومن ثم تاريخيتها - فوقع في خطيئة تأليه النبي ﷺ .. وجعله المحيط بطبقات وعوامل ومراتب جميع الوجودات.. فهو الفاعل والآمر في جميع هذه الوجودات، التي تقع في باطنه لا في خارجه.. أي أنه قد أنْسَنَ الألوهية عندما أراد أن يؤنْسِن النبوة والوحي والدين!

وكي يجعل الوحي تابعًا للنبي - بدلًا من العكس - ذهب - على درب هذه « الهرطقة » - فجعل فعل الله تابعًا لفعل النبي.. وقول الله تابعًا لقول النبي!!

تلك هي الفكرة المحورية التي دارت حولها مقالات ومحاضرات وحوارات الدكتور سروش في هذا الكتاب.

* * *

وإذا شئنا أمثلة أخرى من نصوص الكاتب التي يلح فيها على تأكيد هذه الفكرة المحورية لهذا الكتاب، فسنجده:

• يتحدث عن « بشرية وتاريخية الدين والتجربة النبوية والوحي.. ويؤكد أن الوحي والرسالة تابعان لشخصية النبي »[١].

• وينكر مفارقة النبوة للبشرية، ويقول عن الآية القرآنية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]: « إنها لم تقرر أن النبوة فوق مقتضى البشرية »[٢].

• كما يعتبر أن كتابه هذا، الذي لا يرى في الرسول غير البشرية، قد جاء ردًا على ما زعمه من أن الثقافة الإسلامية نظرت إلى النبي كَمَلَك، وأهملت الجانب البشري فيه..[٣].

• ويتكرر في الكتاب الإلحاح على بشرية القرآن الكريم، الذي أنتجه النبي البشر العارف، في حالة الكشف، وحفلة غليان الشخصية، كانعكاس للواقع الذي عاش فيه النبي.. ولذلك، فإن هذا القرآن – برأي الدكتور سروش – كان من

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٧).

(٢) المرجع السابق (ص ٨).

(٣) المرجع السابق (ص ٨، ٩).

الممكن أن يكون حجمه أكبر من هذا لو امتد عمر النبي مدة أطول، وزادت مواجهاته مع الواقع، كما أن حجمه كان من الممكن أن يكون أقل من هذا لو أن عمر النبي كان أقصر، ومواجهاته مع الواقع - الذي أنتج النص - كانت أقل!

وحول هذا « العبث الفكري » يقول سروش:

« فلو أن النبي استمر في حياته، وكان له من العمر أكثر مما كان، وواجه من الحوادث والتحديات أكثر مما وقع. فمن الطبيعي أن تزداد ممارساته ومواجهاته للحوادث، وهذا يعني أن القرآن كان بإمكانه أن يكون أكثر في حجمه من هذا القرآن الموجود »[١].

« إن الدين يمثل خلاصة وعصارة التجارب الفردية والجمعية للنبي »[٢].. « وبإمكان القرآن أن يزداد حجمه فيما لو فرضنا أن النبي قد امتد به العمر أكثر مما كان، وهذا يعني أن حجم الهداية النبوية وبيان التعاليم السماوية سيكون أكثر مما هو موجود فعلاً.. »[٣].

والدكتور سروش يتجاهل - بهذا الكلام الغريب والعجيب - الحقائق القرآنية التي تقول:

- إن القرآن - كما هو - إنما كان نصًا موجودًا

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٣٨، ١٦٣).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٥).

(٣) المرجع السابق (ص ١٦٣).

ومحفوظًا في اللوح المحفوظ، قبل أن ينزل به جبريل على رسول الله ﷺ.. وإنه قد نزل منجمًا ومفرقًا لا بسبب صدوره عن الحوادث التي جرت في زمن البعثة ومجتمعها، وإنما ليثبت الله به فؤاد رسوله ﷺ أمام التحديات الشرسة التي واجهت الدعوة الإسلامية، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

فالذين كفروا يعرفون أن القرآن تنزيل، وليس منتجًا بشريًا أثمرته وقائع مجتمعهم.. لكنهم كانوا يريدون نزوله جملة واحدة.. والله ﷻ يفصح عن حكمة تنزيله منجمًا، وهي التثبيت الدائم والمتواصل لفؤاد الرسول ﷺ، وتقول الآية ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾..

- ويتجاهل الدكتور سروش أن ما جاء في القرآن الكريم من آيات واكب نزولها « **مناسبات** » لهذا النزول - سماها البعض « **أسباب** » النزول - لم تكن ثمرة لهذه الحوادث والمناسبات - وإلا لاختصت هذه الآيات وأحكامها بمن نزلت فيهم وبسببهم دون غيرهم من الجماعة المؤمنة -.. ومثلها الآيات التي جاءت أجوبة على أسئلة سُئلها الرسول ﷺ.. وإنما كانت هذه الآيات - التي لها مناسبات نزول - والتي لا يتعدى عددها، عند الواحدي النيسابوري [٤٦٨هـ/١٠٧٦م] - وهو من أشهر من كتب في

[أسباب النزول] - لا يتعدى عددها (٤٧٢) آية، من (٦٢٣٦) آية - هي مجموع آيات القرآن الكريم - أي أن الآيات التي لها مناسبات نزول نسبتها إلى آيات القرآن لا تتعدى (٧,٥٪) من آيات القرآن الكريم.

ولقد كانت هذه الآيات - كغيرها - جزءًا من الذكر الذي نزل من اللوح المحفوظ.. كما أن الأحداث التي اقترن بها نزول هذه الآيات لم تكن المنتج لهذه الآيات، وإنما هي أحداث سبق علمها في العلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط، فأنزل الله فيها هذه الآيات لتكون تشريعًا عامًا - لا خاصًا بمن نزلت فيهم هذه الآيات - وثابتًا وخالدًا.. مثلها كمثل الآيات التي قصَّت قصص الأولين.. والتي استشرفت القادم من الأحداث.. جميعها جزء من الذكر الحكيم ونبأ السماء العظيم، السابق وجوده وحفظه في اللوح المحفوظ، والذي نزل منجمًا لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ.. وليست حادثة مضافة كنتيجة للحوادث ومناسبات النزول.

* * *

وحتى يبرر الدكتور سروش « كلامه » هذا عن إمكانية زيادة القرآن أو نقصانه تبعًا لعمر الرسول والأحداث التي وقعت فيه.. ذهب فأنكر اكتمال الدين الذي نزل به القرآن الكريم.. فزعم أن الآية التي تقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]

لا تعني اكتمال الدين، وإنما تعني - برأيه - اكتمال الحد الأدنى - لا الحد الأعلى - للدين!! [١]..

وهذا « الكلام » الغريب والعجيب يتجاهل أن القرآن الكريم كتاب قد أحكمت آياته وفصلت تفصيلاً.. فليس له حدٌّ أدنى وحدٌّ أعلى.. ومواكبة ما يستجد من حوادث بعد اكتمال الدين واكتمال الوحي القرآني إنما تتم بالفقه الذي يقيس المستجدات على ما ورد في النص المحكم - الذي بيّنته السنة النبوية - من مناهج وقواعد ونظريات وأحكام وفلسفة للتشريع..

إن محكمات الدين - التي جاءت بها محكمات آيات القرآن الكريم - هي ثوابت، لا علاقة لها بالجدل الذي دار مع التحديات في التجربة النبوية.. والجدل مع هذه التحديات والحوادث هو أشبه بالفقه والسياسة والفروع التي مرجعها ومرجعيتها ثوابت الدين ومحكمات الآيات.

وكي يهرب الدكتور سروش من حقيقة قطع القرآن الكريم باكتمال الدين: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.. ذهب ليفرق بين « اكتمال » الدين - الذي قطع به القرآن - وبين « شمول » الدين - الذي جاء به الرسول ﷺ - فقال:

« في مسألة كمال الدين.. هناك فرق بين الكامل

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٤٥ - ٤٧).

والجامع. الجامع يعني الشامل لكل شيء.. ولكن الكامل يعني أن هذا الدين لا ينقصه شيء من الأدوات والمفاهيم والتعاليم بالنسبة لما يريد تحقيقه على أرض الواقع البشري وفيما يهتم به لتحقيق رسالته.. فالدين كامل لا جامع، وهذا **الكمال يمثل الحد الأدنى في عالم الثبوت لا الحد الأعلى في عالم الإثبات** »[1].

أي أن الرجل أراد أن يقول بكمال الدين بالنسبة للواقع النبوي، وبعدم كماله وشموله لما يأتي من الزمان والمكان - بعد العصر النبوي..

ولو أخلص الدكتور سروش للحقيقة التي تعلن أن القرآن الكريم قد جمع وشمل ثوابت العقيدة والشريعة ومنظومة القيم والأخلاق.. ومعالم عالمي الغيب والشهادة.. وأنه قد رسم معالم المناهج التي تفتح أبواب العقل والفكر لمواكبة كل المستجدات عبر الزمان والمكان.. وأنه قد وضع المناهج والقواعد والنظريات وفلسفة التشريع لكل ما يأتي به الزمان.. لو أخلص الدكتور سروش لهذه الحقيقة التي تجلت وتجسدت في القرآن الكريم، لأدرك وأعلن أن هذا الدين - بهذا المعنى - قد جمع بين الكمال وبين الشمول.. ولذلك، فإن القرآن الكريم كما قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ قال - أيضًا -:

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ١٦٤ - ١٦٦).

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويشهد على هذا الذي نقول: أن الأمة التي تدينت بهذا الدين عندما خرجت من طور السذاجة الحضارية، وبنتْ إحدى أعظم الحضارات الإنسانية، إنما صنعت ذلك انطلاقًا من الدين والقرآن، ولم يحدث أنها شعرت بنقص في هذا الاكتمال والشمول.. لقد أبدعت الجديد، بواسطة المعارف والعلوم التي حث عليها هذا الدين، والتي ضبط مناهجها هذا الدين.. ولو كان الدكتور سروش فاقهًا لمعنى إحكام الكتاب الذي ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] لَعلِمَ أنه نصٌّ كامل في إحكامه، ومحكم في تفصيله.. وإلا فكيف يكون كتابًا قابلًا للزيادة والنقصان وقد جاء نصه مقسمًا إلى أربعة أرباع يبدأ كل ربع منها بـ [الحمد لله].. فالربع الأول يبدأ بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ - في الفاتحة -.. والربع الثاني يبدأ بالأنعام ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾.. والربع الثالث يبدأ بالكهف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾.. والربع الرابع يبدأ بفاطر ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. ولقد بدأ هذا النص الكامل في إحكامه، والمحكم في تفصيله بإعلان أن الله هو ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ واختتم واكتمل بإعلان أن الله هو « رَبِّ النَّاسِ ».

ولو راجع الدكتور سروش أفكاره - بشجاعة تقارب

جرأته واجترائه - لنسأل نفسه:

- إذا كان اكتمال القرآن - على يدي النبي ﷺ - إنما كان اكتمال الحد الأدنى.. فأين هو حده الأعلى، أو حتى الأوسط، بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا تلاطمت فيها بحار الواقع ومحيطاته بالوقائع والتحديات، التي كان مفترضًا - وفق نظرية الدكتور سروش - أن تنتج المزيد والمزيد والمزيد من حجم هذا القرآن؟!

وإذا كانت أحداث مجتمع بسيط - هو مجتمع النبوة - قد أنتجت - في ثلاثة وعشرين عامًا - (٦٢٣٦) آية هي حجم « الحد الأدنى » للقرآن - كما يقول سروش - فكم هو حجم القرآن الذي كان مفترضًا على رأي الدكتور سروش أن تنتجه أحداث وتحديات خمسة عشر قرنًا، في مجتمعات بلغت شأنًا بعيدًا في التعقيدات والتحديات؟!

أم أن رب العباد - حاشاه وتنزه - قد تخلَّى عن عباده، فتركهم للزمان وتحدياته دونما هداية ولا حجة ولا تسديد؟!..

وإذا كان الدكتور سروش - كما سيأتي في الحديث عن « هرطقاته » - قد قال باستمرار النبوة بعد محمد ﷺ؛ لأن باب الهداية الإلهية لم يغلق.. فلماذا لم يقم هؤلاء « الأنبياء » الذين « رخص » لهم الدكتور سروش - لماذا لم يقوموا بزيادة حجم القرآن الكريم عن حده الأدنى الذي جاء به رسول الله ﷺ؟!...

ثم.. هلَّا قرأ الدكتور سروش - في كمال الدين واكتماله.. وفي شموله ووفائه - قولَ إمام التجديد في العصر الحديث الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: « إن الإسلام دين وشرع، جاء كمالاً للشخص، وأُلفة في البيت، ونظامًا للمُلْك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه » [١]، « وأن أحكام الشريعة وافية بسد حاجات طلاب العدل في كل زمان ومكان، مع اليسر ورفع درجة الحرج الذي تكفَّل الله برفعه عن هذه الأمة إلى أن تنقضي الدنيا » [٢].

فالدين كامل وشامل، ووافي بسد حاجات طلاب العدل في كل زمان ومكان، وحتى انقضاء الدنيا..

هلا قرأ الدكتور سروش هذا - ومثله كثير وكثير..؟!.. أم أن الأمر أمر « نظريات » هي أقرب إلى الهزل الذي لا يليق بمفكر يتحدث عن القرآن الكريم؟!

* * *

ويذهب الدكتور سروش ليعيد التأكيد على « أن القرآن

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣/٢٢٦)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م)، وطبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٥١).

هو منتج وحياني من النبي »[١]، مخالفًا ما أجمعت عليه أمم الديانات السماوية - بأحبارها وقديسيها وعلمائها وعرفائها - من أن الوحي تنزيل أنزله الله ﷻ على الرسول ﷺ، ليبلغه الرسول إلى الناس..

يذهب الدكتور سروش ليدعي أن الوحي منتج نبوي، تابع للنبي، فيقول: « إن الوحي تابع للنبي، ومتناسب مع محيط النبي، ومتناسب مع الحوادث الواقعة في زمن النبي، ومتناسب مع مزاج وعقلانية قومه، ومتناسب مع الأجواء والأمثلة والثقافة التي كانوا يعيشونها »[٢].

وفي هذا الكلام الغريب والعجيب - الذي لا تستسيغه حتى المادية الجدلية - مناقضة للبدهيات التي تقول: إن الوحي إنما جاء ليضيف إلى شخصية النبي ﷺ وإلى علمه.. وليزيده علمًا، وليعلمه ما لم يكن يعلم.. ولم يكن هذا الوحي مجرد إفراز ومنتج نبوي.. كما أن هذا الوحي إنما جاء ليغير الواقع والثقافة والمزاج والعقلية التي كانت سائدة.. لا ليكون مناسبًا لها.. وتابعًا.. وانعكاسًا..

هكذا يقول المنطق.. وبهذا تشهد وقائع التاريخ.

وعلى حين اجتمع الجميع - في كل الديانات السماوية -

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ١٧٩).

(٢) المرجع السابق (ص ١٩٩، ٢٠٠).

على أن الشرائع إنما هي « وضع إلهي »، نزل بها الوحي على الأنبياء والمرسلين، الذين كلفوا بإبلاغها، وبيانها، والتزامها.. يقول الدكتور سروش - تبعًا لهذا التأويل المادي للوحي والدين - المغلف بقشور عرفانية متهرئة - يقول: إن مصدر الشريعة بشري أيضًا، وليس السماء والتنزيل يقول:

« إنني أعتقد أن النبي هو المشرع للأحكام الفقهية، وأن النبي نفسه هو المقنن لهذه المسائل، وبالطبع فإن الله تعالى أمضى القوانين التي شرعها النبي » [١]!!..

فهو يجعل النبي مصدر الشريعة، ويضع الذات الإلهية في موضع من أمضى القوانين التي شرعها النبي!!.. وفي هذا تكذيب لمحكم القرآن الكريم - الذي لا يقبل أي تأويل - والذي يقطع بأن الشريعة وضع إلهي، أمر الله نبيه باتباعها:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية: ١٨].

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ١٠٩].

فالشارع هو الله.. والرسول مبلغ ومبين ومنفذ للشرع والشريعة، ومتبع لها.. وإذا شرع فهو يشرع بما أراه الله:

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٠١).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

لقد تحدث القرآن الكريم عن أن الله ﷻ قد أنزل القرآن على رسوله تنزيلاً.. وورد ذلك في محكم القرآن، فيما يزيد على مائتي آية قرآنية، منها - على سبيل المثال -:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: ٣].

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٣].

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النحل: ١٠٢].

لكن الدكتور سروش قد تجاهل هذه الحقيقة التي ألح عليها القرآن الكريم - حقيقة أن هذا الوحي القرآني إنما هو تنزيل.. ووضع نفسه - والعياذ بالله - مع الذين قالوا: ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك: ٩].. وذلك عندما زعم بشرية الوحي والنبوة والرسالة والدين.. وقال بما قاله أستاذه نصر أبو زيد: إنه نص بشري، تكوّن في الواقع - على امتداد ثلاثة وعشرين عامًا - فهو « ديالكتيك صاعد » وليس تنزيلًا هابطًا من السماء.. فالواقع أولًا.. والواقع أخيرًا.. ولا شيء غير الواقع!!

* * *

وتأسيسًا على دعوى بشرية الشريعة وأرضيتها، أسس الدكتور سروش فكرة ونظرية نسبية هذه الشريعة وتاريخيتها.. أي إنكار الخلود والعموم في مبادئها ونظرياتها وأحكامها.. فقال:

« والهاجس الأساس للنبي في أمر التقنين هو أن هذه الأحكام والقوانين لا بد أن تكون عادلة في أجواء زمانه، وتبتعد عن الظلم في عرف ذلك الوقت، لا أنها تمثل العدالة المطلقة وفوق التاريخية.. فجميع الأحكام الفقهية في الإسلام مؤقتة وترتبط بالمجتمع العربي في صدر الإسلام والمجتمعات المماثلة له » (١).

ويمضي - الدكتور سروش - فيضيف:

« .. فالنبي قد بعث في قوم معينين، وفي تاريخ معين، ولا يستوعب جميع الأزمنة والأمكنة.. ويخاطب أناسًا معينين لا جميع الناس في المجتمعات البشرية » (٢).

وأمام هذه التاريخية، التي عمَّمها الدكتور سروش على مجمل الرسالة المحمدية - وليس فقط الشريعة - [التي يعبر عنها بالأحكام الفقهية التي شرعها الرسول] - ينكر الرجل - وأكاد أقول يكذِّب - ما جاء بالقرآن الكريم عن أن هذه الرسالة المحمدية، إنما جاءت للعالمين.. وأن الخطاب فيها قد جاء إلى الناس - مطلق الناس.. وكل الناس - في عشرات الآيات.. وأنها قد جاءت البشير والنذير الخاتم والخالد لكل عوالم الخلق عبر الزمان والمكان، وحجة الله البالغة على خلقه، ونوره الساطع على الأكوان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٠١ - ٢٠٣).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١٩).

ولا يدع الدكتور سروش بابًا لاحتمال استثناء شيء من القرآن من هذه التاريخية التي تطوي كل مكوناته - الذاتية والعرضية - فيقول - بصيغة القطع والإطلاق والتعميم -:

« عندما نقول بتاريخية القرآن، فهذا يعني أن كل وجوده ومجيئه إلى عالم الطبيعة يرتدي لباس حال تاريخية معينة.. سواء في ذاتياته أو عرضياته، ومن هذه الجهة لا يختلف الحال بين هذين البعدين »[1].

* * *

وتبعًا لهذه التاريخية، التي تطوي صفحة القرآن والشريعة، بتطور التاريخ وتغير وقائعه، قطع الدكتور سروش بانتهاء وانقطاع أهم مقومات الشخصية النبوية، وهو ميراث النبوة في « الولاية ».. فقال:

« إن أهم عنصر مقوّم لشخصية النبي هو عنصر « الولاية » التي تعكس الحق والحجة الإلهية، وتمثل أمر الله، وهذا هو الشيء الذي انتهى وانقطع بشكل أبدي بالخاتمية.. »[2].

هكذا حكم الدكتور سروش بأن أمر الله، والحق، والحجة الإلهية، قد انقطعت وانتهت بشكل نهائي وأبدي، عندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وعندما خُتمت

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٣٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٧٢).

النبوة.. وذلك بدلاً من أن يقول بتمامها واكتمالها وخلودها.

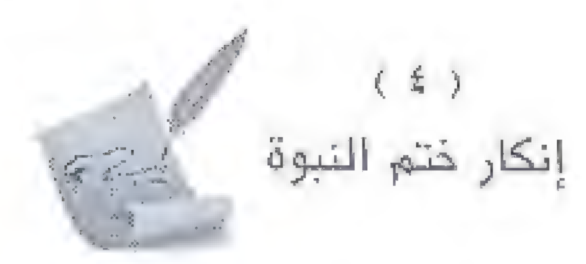
ونحن نسأل الرجل - الناقل لهذه « الهرطقات - الهيرمينوطيقية » -:

- إذا كان أمر الله.. والحق الذي جاء به الدين.. والحجة التي لله على عباده.. فقد انقطعت وانتهت إلى الأبد، بوفاة الرسول ﷺ.. فماذا بقي من دين الإسلام؟!.. وما اسم هذا الدين الذي تدين ويتدين به المسلمون منذ وفاة الرسول ﷺ وحتى الآن؟!..

وبأي حق.. وبأية حجة ندين ونتدين - يا دكتور سروش -؟!..

أم أننا نعيش زمن « الفترة » منذ أربعة عشر قرناً؟!.

* * *



(٤)

إنكار ختم النبوة

ومن « هرطقات » الدكتور سروش - في هذا الكتاب [بسط التجربة النبوية] - ما ذهب إليه من إنكار ختم النبوة والرسالة برسالة رسول الإسلام محمد ﷺ..

فرغم قطع القرآن بأن رسول الإسلام هو خاتم النبيين ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقول الرسول ﷺ: « إنه ليس بعدي نبي »[١] -.. وقوله: « إنه ليس كائن بعدي نبي فيكم »[٢].

ومجيء الرسالة المحمدية: عالمية.. وصالحة - بوقوفها عند الثوابت والكليات والمناهج والقواعد - لكل زمان ومكان.. وتمثيلها « الديوان الجامع » لكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع.. الأمر الذي يعني - منطقيًا - أنها خاتمة الرسالات، التي أكمل الله بها دينه الواحد..

بالرغم من ذلك، يذهب الدكتور سروش إلى أن النبوة - بل والرسالة - لم تختم ولم تنقطع!!..

لقد سبق وأنكر اكتمال الحد الأعلى للدين والقرآن..

---

(١) رواه البخاري والإمام أحمد. (٢) رواه ابن ماجة.

وأنكر شمول الدين وجامعيته.. كما سبق - في الهرطقة الكبرى - التي ابتدعها - عندما جعل النبي ﷺ مجرد عارف، بلغ مقامًا عاليًا في سلم العرفان..

وإذا كانت النبوة والرسالة لا تعدو هذه الدرجة المتميزة في العرفان.. فما المانع من أن تشهد الحياة المزيد والمزيد من هؤلاء العرفاء - الذين هم عند الدكتور سروش - أنبياء ومرسلون؟!..

فقط، طلب الدكتور سروش من هؤلاء الأنبياء والمرسلين الجدد أن لا يعلنوا حقيقة نبوتهم ورسالتهم، وأن يكتموها، لا لأنها غير حقيقية.. ولا لأن البشرية لا تحتاجها.. وإنما - فقط - خوفًا على حياتهم من شدة المسلمين وقسوتهم عليهم إن هم أعلنوا هذه « الحقيقة » التي قررتها « هرطقة » الدكتور سروش!!..

هكذا ذهب الدكتور سروش إلى إعلان:

« أن التجربة النبوية، أو التجربة الشبيهة بتجربة الأنبياء لم تنقطع بصورة كاملة؛ بل هي باقية في روح وطبيعة البشر ».

ثم تساءل قائلاً:

« وهنا يثار هذا السؤال:

- هل يستطيع كل شخص أن يكون رسولاً؟؟ ».

ثم أجاب الدكتور سروش:

« في الواقع ينبغي الإذعان إلى هذه الحقيقة، وهي أن كل شخص بإمكانه أن يكون نبيًا لنفسه.. وعلى الأشخاص الذين يعيشون هذا الإحساس.. أن يكتموا هذا الشعور، ولا يظهروا هذه الحالات للناس.. فالمجتمع الديني الإسلامي سيتصدى لهم بقسوة وشدة لو أعلنوا نبوتهم؛ لأن النبي قال: « لا نبي بعدي ».

إن التجربة النبوية مستمرة وباقية في مجمل الصيرورة التاريخية في المجتمع البشري؛ لأن تجليات الله لا تنفد، ولا يمكن القول إن الله تعالى تجلى لنبي الإسلام ثم أوصد باب التجلي على نفسه.. » [(١)].

هكذا رتب الدكتور سروش هذه « الهرطقة » الكبرى على الهرطقة الأكبر.. فهو قد جعل النبوة تجربة بشرية عرفانية، وليست اصطفاءً إلهيًا معجزًا ومفارقًا للواقع.. ومن ثم فتح الباب أمام استمرار هذه التجارب العرفانية المتميزة، التي سماها نبوة ورسالة ووحيًا..

فقط.. دعا الرجل هؤلاء الأنبياء والرسل الجدد إلى التحلي بالجبن، وكتمان رسالاتهم خوفًا من شدة المسلمين وقسوتهم.. ولم يقل لنا كيف يكون هؤلاء العارفون الجبناء، الذين يكتمون تجليات الله، ويهملون هداية البشرية.. كيف يكونون أنبياء ومرسلين.

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٠٥ - ٢٠٧).

وإذا كان الدكتور سروش قد علّل استمرار النبوة والرسالة بأن الله، الذي لا تنفد تجلياته، لا يمكن أن يوصد باب هذه التجليات بوفاة رسول الإسلام ﷺ فهل عدمت البشرية أن يجد فيها باريها عرفاء غير جبناء؟!..

وإذا كان الدكتور سروش قد قال - من قبل - إن رسول الإسلام لم يأت إلا بالحد الأدنى للقرآن.. أفما كان رفع هذا الحد الأدنى إلى المستويات التي تعكس مستجدات القرون التي تطاولت، بحاجة إلى نبي غير جبان يزيد من حجم هذا القرآن - وفق نظرية الدكتور سروش -؟!..

وإذا كانت كل هذه الجرأة على هذه « الهرطقات » قد وافت الدكتور سروش - في وسط ديني متشدِّد - فكيف عزَّت هذه الجرأة على « أنبياء » الدكتور سروش، الذين قال إن ظهورهم دائم ومستمر لاستمرار تجليات الله التي لا تنفد؟!..

هكذا خان المنطق الدكتور سروش..

وهكذا كذب الرجل على الله - الذي قال عن رسول الإسلام إنه « خاتم النبيين ».. وكذب على الرسول الذي قال: « إنه لا نبي بعدي »..

ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

* * *

(٥)

إنكار العقلانية والبرهانية على القرآن

وينطلق الدكتور سروش من الفلسفة الوضعية، التي تنكر عقلانية الدين، وتنفي منطقيته وبرهانيته - إلى نفي البرهانية والاستدلالية عن القرآن الكريم وعن كل الكتب السماوية، وعن مطلق الدين، فيقول:

« إن خطاب الأنبياء منطلق نوعًا ما من موقع الأمر، ومن مرتبة أعلى، وفي الغالب يخلو من الاستدلال.. ولو ألقينا نظرة على القرآن - والكتب السماوية الأخرى - فإننا لن نعثر على عملية برهنة واستدلال إلا نادرًا » [١].

وبهذا الكلام الغريب والعجيب يتجاهل الدكتور سروش الحقائق التي تقول إن القرآن الكريم قد تحدث عن العقل والعقلانية - باللفظ - في مئات الآيات:

- تحدث عن فعل العقل - باللفظ - في (٤٩) آية.
- وتحدث عن العقلانية - بلفظ القلب - في (١٣٢) آية.
- وتحدث عن العقلانية - بلفظ اللُّب - في (١٦) آية.
- وتحدث عن العقلانية - بلفظ النُّهى - في آيتين.

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٨).

- وتحدث عن العقلانية - بلفظ الفكر والتفكر - في (١٨) آية.

- وتحدث عن هذه العقلانية - بلفظ الفقه - في (٢٠) آية.

- وتحدث عنها - بلفظ التدبر - في أربع آيات.

- وبلفظ الاعتبار في سبع آيات.

- وبلفظ الحكمة في (١٩) آية.

- واستخدم القرآن مصطلح البرهان في ثماني آيات.

أي أننا أمام (٢٧٥) موضعًا قرآنيًا جاء الحديث فيها عن العقل والاستدلال العقلي والبرهاني باللفظ.. وذلك فضلًا عن المواضع - التي تعز على الإحصاء - والتي استخدم فيها القرآن الكريم الاستدلال العقلي والبرهاني دون هذه المصطلحات.. وذلك مثل:

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ

رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].. إلخ.. إلخ.

وهكذا جاءت معجزة القرآن الكريم معجزة عقلية: تستنفر العقل وتستحثه على النظر والتفكر والتدبر، لا معجزة مادية، تدهش العقل فتشله عن النظر والتدبر والتعقل - كمعجزات الرسالات السابقة التي جاءت إبان طفولة العقل البشري -..

ولهذه الحقيقة - حقيقة تميز القرآن والإسلام بالعقلانية - تواترت شهادات جمهور غفير من العلماء - المسلمين وغير المسلمين - على « البنية العقلية » للقرآن والإسلام.

وإذا كان الدكتور سروش لم يقرأ - كمثال على هذه الشهادات - قول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده:

« لقد كانت الأمم تطلب عقلاً في دين فواتاها.. ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله وبدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه من فهم معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها..

فالله يخاطب – في كتابه – الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد.. والقرآن دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. والإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية..

ولقد مهّد الكتاب وصحيح السنة بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد.. »[1].

هكذا شهد فيلسوف التجديد الإسلامي بالعصر الحديث، وأكبر من تكونت من حوله مدرسة فكرية، لا تزال فاعلة في واقعنا الفكري المعاصر، على امتداد عالم الإسلام..

وإذا كان الدكتور سروش لم يقرأ الشهادات الإسلامية التي تواترت على عقلانية القرآن والإسلام.. فهلا قرأ نظائرها الغربية التي كتبها لاهوتيون وفلاسفة ترجموا القرآن وخبروه، وألفوا في تراث الإسلام وحضارته، وشهدوا على عقلانية

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣/ ٤٦١، ٣٥٦، ١٦٥؛ ٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٢)، وانظر كتابنا: مقام العقل في الإسلام (ص ١٤٤ – ١٦٦)، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (٢٠٠٧م).

الإسلام.. ومنهم – كنموذج لهم – المستشرق الفرنسي « إدوارد مونتيه » [١٨٥٦ – ١٩٢٧م] الذي قال:

« إن الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. وإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق..

إن لدين محمد كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أسس المنطق والعقل. إن الإيمان بالله والآخرة – في الإسلام – يستقران في نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن »[1].

فهلا قرأ الدكتور سروش – صاحب الثقافة الواسعة – شيئًا من هذه الشهادات – التي تواترت في التراث الإسلامي والتراث الغربي – قبل أن يقول:

« إننا لا نعثر في القرآن على عملية برهنة واستدلال إلا نادرًا »؟!

لقد كاد فلاسفة الإسلام أن يجمعوا – انطلاقًا من

---

(١) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (ص ٨٩)، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

القرآن - على أن أول واجب على الإنسان هو النظر - الذي ورد مصطلحه في القرآن في عشرات الآيات - .. بل وقال فريق من فلاسفة الإسلام: إن أول واجب على الإنسان هو « الشك المنهجي » لأنه هو الطريق إلى اليقين، حتى لقد جعلوا من هذا « الشك المنهجي » علمًا يجب طلبه.. وقال الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩م] في ذلك:

« .. فاعرف مواضع الشك وحالاته الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلمًا.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » [١].

وحتى قال الحارث المحاسبي [١٦٥ - ٢٤٣هـ/٧٨١ - ٨٥٧م] الذي جمع بين العرفان والنصوص: « بالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم. وبه أقام الله على البالغين للحُلُم الحجة، وإياهم خاطب من - قِبَل عقولهم ووعد وتوعد، وأمر ونهى، وحضّ وندب » [٢].

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان (٦/٣٥ - ٣٧)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة - الثانية -.

(٢) الحارث المحاسبي: مائية العقل وحقيقة معناه (ص ٢٠١) وما بعدها، و: فهم القرآن (ص ٢٦٦، ٢٦٧)، دراسة وتحقيق: حسين القوتلي، طبعة بيروت، سنة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

وحتى قال حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م] - الذي جمع عقل الفيلسوف إلى قلب الصوفي:

« إن مثال العقل: البصر السليم من الآفات. ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. وإن العقل أولى باسم النور من العين.. بل الحق أنه يستحق الاسم دونها. وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فباحري أن يسمى القرآن نورًا، كما يسمى نور الشمس نورًا.. ولقد تحقق أهل السنة أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول.. فالعقل مع الشرع نور على نور »[1].

فهلا قرأ الدكتور سروش شيئًا من ذلك، قبل أن يقول « كلامه » الغريب والعجيب، الذي ينفي فيه البرهانية والعقلانية والاستدلال عن القرآن الكريم؟!

* * *

ووثيق الصلة بهذه القضية - قضية الموقف الإسلامي من

---

(١) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢، ٣)، طبعة صبيح، القاهرة، و: مشكاة الأنوار (ص ٣٦)، طبعة القاهرة (١٩٠٧م)، و: رسالة الغزالي إلى ملك شاه في العقائد (ص ١٩)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٧م).

تحرير العقل الإنساني - إلحاح الدكتور سروش على مقولة: أن العقل إنما تحرر بختم النبوة [١].. على حين قد رأينا، انطلاقًا من القرآن الكريم، وشهادات العلماء - في الشرق والغرب - أن العقل إنما تحرر بالقرآن والإسلام، وبنبوة رسولنا - عليه الصلاة والسلام -.. الذي قال: « عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدًا » [٢].

- وهو حديث يفتح أمام الإنسانية أبواب التعرف على القرآن الكريم، باعتباره « ديوان » العقل.. والحكمة.. والعلم..

ولأن القرآن الكريم هو الذي حرر ملكات الإنسان وطاقاته - ومنها ملكة العقل - وذلك عندما وضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.. وعندما أحيا هذه الملكات والطاقات:

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإن الرسول - الذي نزل عليه هذا القرآن - هو الذي

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) رواه الدارمي.

أجاب الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - عندما سأله عن سنته؟.. فقال ﷺ: « .. والعقل أصل ديني »[1].

هكذا كان تحرير العقل بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزله الله عليه.. وبالسنة النبوية التي بينت هذا القرآن..

ولم يكن تحرير العقل بختم هذه النبوة - كما زعم الدكتور عبد الكريم سروش -!!..

* * *

(١) انظر إحياء علوم الدين (٣٦١/٤).



(٦)
الدعوة لاختزال الإسلام

وفي كتاب الدكتور سروش - [بسط التجربة النبوية] - إلحاح على علمنة الدولة والسياسة والمجتمع والقانون..

فهو يبدأ باختزال التمدن الإسلامي في الفقه، مستشهدًا بعبارة الدكتور محمد عابد الجابري [١٣٥٥ - ١٤٣١هـ/ ١٩٣٦ - ٢٠١٠م] التي يقول فيها: « إذا كان التمدن اليوناني يمثل تمدنًا فلسفيًا، فإن التمدن الإسلامي هو تمدن فقهي ».

ثم يعقب الدكتور سروش على عبارة الجابري بقوله:

« وهذا الكلام له جانب كبير من الصحة، **فالتمدن الإسلامي ينتج فقهاء أكثر مما ينتج فلاسفة** »[١].

وهذه المقولات - للجابري ولسروش - لا مصداقية لها.. فالفلسفة اليونانية لم تتفرد بالتمدن اليوناني، وإنما زاملها القانون الروماني، والآداب والفنون الإغريقية الرومانية..

أما التمدن الإسلامي، فإنه لم يقف عند الفقه - بل إن الفقه في منظومة العلوم الإسلامية، هو من علوم الفروع -

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٣١٠).

ولذلك بني التمدن الإسلامي على العقائد.. والفلسفات.. والتصوف.. وأصول الدين.. وأصول الفقه.. والعلوم التجريبية الكونية.. وتطبيقاتها.. ومناهجها.. وعلى الآداب والفنون.. لقد بني هذا التمدن الإسلامي على علوم السماء والأرض.. على ثمرات قراءة العقل والقلب لكتابي الوحي والكون.. ولقد تجلَّت هذه الحقيقة - التي تميز بها التمدن الإسلامي - في إبداعات علماء الإسلام..

• فابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ/١١٢٦ - ١١٩٨م] لم يكن - فقط - الفقيه الذي يفزع الناس إلى فتواه في الفقه.. وإنما كان - أيضًا - الفيلسوف.. والمتكلم.. واللغوي.. والطبيب، الذي يفزع الناس إلى فتواه في هذه العلوم كما يفزعون إلى فتواه في الفقه وفلسفة اختلاف الفقهاء.

• وابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ - ١٠٣٧م] كان « الشيخ الرئيس » في الشرعي.. والمدني.. في الإلهيات.. والطبيعيات.. في التصوف.. وعلوم الأوائل.. وفي الهيئة.. والنبات.. والحيوان..

• وأبو منصور البغدادي [٤٢٩هـ/١٠٣٧م] هو الذي اشتهرت إبداعاته في أصول الدين.. وفي الحساب.. والهندسة.. حتى لقد قالوا: « إنه كان يدرِّس في سبعة عشر فنًّا ».

• وعمر الخيام [٥١٥هـ/١١٢١م] هو الذي جمع -

في إبداعاته - بين اللغة.. والشعر.. والتصوف.. والفلسفة.. والفقه.. والتاريخ.. والهندسة.. والفلك.. والرياضيات..

• والفخر الرازي [٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م] هو الذي تبوأ عرش الإمامة في علوم الدين والدنيا جميعًا.. حتى لقد قال مؤرخوه: « إنه كان أوحد زمانه في المعقول والمنقول.. وعلوم الأوائل »..

• وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م] هو الذي جمع بين الفلسفة.. والتصوف.. والكلام.. والفقه.. والأصول.. فكان - ولا يزال - « ظاهرة فكرية » عامة وشاملة، جامعة بين العمق والموسوعية..

هكذا أفصحت ظاهرة « تكامل العلوم » في إبداعات علماء الإسلام عن حقيقة قيام التمدن الإسلامي على تكامل العلوم والفنون.. وليس - فقط - على الفقه، كما زعم الجابري وسروش.

• • •

وبعد دعوى اختزال التمدن الإسلامي في الفقه.. أخذ الدكتور سروش في الإلحاح على إخراج الحياة الإسلامية المعاصرة من هذا الفقه.. فدعى إلى « الخروج من الفقه كعلم ديني إلى الحلول العقلانية للمشكلات الاجتماعية » [1]..

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ١٤١).

وكأن هذا الفقه الإسلامي غير عقلاني - وهو الذي يعقد القرآن بين فقه الواقع وفقه الأحكام - بدءًا بفقه الواقع - معتمدًا على الآليات العقلية في فقه النصوص.. وعلى العلوم الاجتماعية والإنسانية في فقه الواقع.. مع إضافة القياس والاستصحاب والاستصلاح والمصالح المرسلة إلى النصوص..

وإمعانًا في هذا الاتجاه، دعا الدكتور سروش إلى التخفف - في السياسة والحكومة - من الدين « لأن الحكومة - [كما يقول] - وليدة المجتمع.. وحاجتها إلى العلوم أكثر من حاجتها إلى القواعد الأخلاقية والحقوقية »[1].

ولقد نسي الرجل أن بدعته الأكبر قد جعلت الدين وليد المجتمع، الأمر الذي يؤلف بينه وبين الحكومة!!..

كما تجاهل أنه - بهذه الدعوة إلى استبعاد القواعد الأخلاقية من ميادين ومعايير السياسة والحكومة - إنما يستبعد طوق النجاة الذي يحتاجه عالمنا المعاصر.. فلقد أقامت النهضة الأوروبية تمدنها على « الحداثة » التي جعلتها دينًا طبيعيًا، قام على العقل والعلم، وأحلته محل الدين السماوي.. وبعد أن أدى ذلك إلى اختزال المسيحية وتهميشها، واستبعادها من الحياة العامة والخاصة - الفردية.. والأسرية.. والتربوية - أفلست هذه الحداثة عندما عجزت عن الإجابة على الأسئلة الطبيعية للإنسان، والتي كان الدين

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص ١٧٠، ١٧١).

يجيب عليها.. ففقد الإنسان الأوربي - والغربي - النجم الذي كان يرشده ويهديه - نجم الدين.. ونجم الحداثة معًا - وانزلق هذا الإنسان إلى عدمية وتفكيكية وفوضوية « ما بعد الحداثة » حتى لقد افترسته أمراض اللاأدرية والاغتراب.. حتى أقبل على عبادة الشياطين.. والأرواح.. والأشباح.. وروحانيات الديانات الوضعية.. وأيضًا على الإسلام..

ثم إن مقابلة الدكتور سروش بين العلوم الاجتماعية والإنسانية وبين الفقه الإسلامي والقواعد الأخلاقية هي مقابلة غير موضوعية وغير واعية! فالفقه الإسلامي هو علم من العلوم الاجتماعية، وليس غريبًا عن هذه العلوم حتى يوضع مقابلاً لها.. إنه علم اجتماعي مرجعيته الدين والواقع معًا.

ولذلك، فإن هذا الفقه الإسلامي قد تفرد بالجمع بين الأحكام الحافظة للحقوق والمنظمة لها، وبين القواعد الأخلاقية التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من هذه الحقوق..

ولو قرأ الدكتور سروش شهادة الفقيه القانوني الأوربي « ديفيد سانتيلانا » [١٨٤٥ - ١٩٣١م] - وهو الحجة في الفقه الإسلامي وفي القوانين الغربية الوضعية - لو قرأ شهادته للفقه الإسلامي بالجمع بين هذين البعدين.. وامتيازه بذلك على القانون الغربي، لما ظلم الفقه الإسلامي، ولما دعا إلى إخراجه من الحياة السياسية والاجتماعية..

لقد قال « سانتيلانا »:

« إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف - [في الغرب] - هو: مجموعة من القواعد السائدة التي أقرها الشعب، إما رأسًا أو عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.

إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط؛ بل يقترف خطيئة دينية أيضًا، فالنظام القضائي والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير.. والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدًا تامًا.. والأخلاق والآداب في كل مسألة، ترسم حدود القانون، فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلًا.. » [١].

---

(١) سانتيلانا: القانون والمجتمع - بحث منشور بكتاب: تراث الإسلام (ص ٤١١، ٤٣٨، ٤٣١)، ترجمة جرجيس فتح الله، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م)، وانظر كتابنا: الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية (ص ٣٣ - ٤١)، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

لقد فَقِهَ هذا المستشرق - الذي درَّس القانون الإسلامي والقانون الروماني في الجامعات الغربية والإسلامية - فَقِهَ تميز الفقه الإسلامي بالجمع بين القانون - كعلم اجتماعي - وبين الأخلاق - كجزء من الدين -.. ورأى في هذا التميز امتيازًا لهذا الفقه الإسلامي على القانون الوضعي الغربي.

وهذا الفقه الذي فَقِهَهُ المستشرق سانتيلانا هو الذي عجز عنه - أو تجاهله - الدكتور سروش، فدعا - في السياسة والحكومة والقانون - إلى التخفف من الدين، وإلى الخروج من الفقه الإسلامي.. ومن القواعد الأخلاقية للإسلام!..

* * *

(٧)

موقف شعوبي من العربية

وللدكتور سروش - في كتابه هذا [بسط التجربة النبوية] - موقف غير ودي، وغير موضوعي من اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - يذكرنا بالنزعات الشعوبية.. وهذا الموقف يوحي باتهام العربية بالفقر [١]، مع أنها قد وسعت بلاغة القرآن، وإعجازه، وبيانه، وإشاراته، ومجازاته، واستعاراته، وكناياته.. ووَشَتْ بأسراره التي لا تنفد.. ومثلت الكنز اللانهائي لهذه الأسرار - وهي إمكانات لا أظن أن لغة أخرى تنافسها فيها، أو تقترب منها في هذا المضمار - وذلك لخصائصها التي هي الأنسب لخصائص الذكر الحكيم والنبأ العظيم.

لقد تعارف علماء اللغات على أن هذه اللغات « وضعية » تعارف عليها البشر.. لكن الكثيرين من عظماء علماء العربية تساءلوا هل هذه اللغة التي وسعت « المطلق » « المعجز » هي « وضعية »؟.. أم « توقيفية »؟؟.. « مخلوقة » هي أم « قديمة »؟ [٢].

---

(١) بسط التجربة النبوية: (ص ٩٦ - ٩٨).

(٢) ابن جني: الخصائص (ص ٤٥، ٤٦)، طبعة القاهرة، سنة (١٩١٣م). وانظر كتابنا: المنهاج العقلي في دراسات العربية (ص ٤٤ - ٥٢)، طبعة نهضة=

كذلك استوعبت العربية تراث الحضارات القديمة - إغريقية ورومانية وفارسية وهندية ومصرية - على اختلاف علومها وفنونها -.. كما استوعبت مواريث النبوات السابقة وأصبحت لغة العلم العالمي والفكر الإنساني وديوان الفلاسفة والمفكرين والعرفاء لأكثر من عشرة قرون.

* * *

بل لقد امتد هذا الموقف غير الودي - للدكتور سروش - من اللغة العربية إلى الحد الذي ادعى فيه دعواه غير المسبوقة - حتى في إطار النزعات الشعوبية - أن عربية القرآن الكريم هي أمر عَرَضي - وليست من ذاتيات القرآن - وأن « بالإمكان أن يرد النص المقدس بلغة أخرى » غير العربية [1].

وهذا خطأ فاحش وقع فيه الدكتور سروش.. فالجائز والممكن هو ورود معاني القرآن الكريم بغير العربية، أما نصه، فعربيته هي السبيل الوحيد لتجلي ما فيه من إعجاز.. وعندما يقول الله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (طه: ١١٣).. فإن ذلك لا يعني فقط مجيئه بلسان القوم العرب الذين بدأت فيهم الرسالة والوحي.. وإنما يعني العلاقة الخاصة بين عروبة النص وبين ما فيه من إعجاز..

= مصر - سلسلة في التنوير الإسلامي - القاهرة، سنة (١٩٩٨م).

(١) بسط التجربة النبوية (ص ٢٦).

ولقد أجمعت الأمة – على اختلاف ألسنة شعوبها – وأجمع العلماء غير المسلمين الذين تعاملوا مع القرآن: على أن فقه العربية إنما هو شرط فقه إعجاز القرآن الكريم..

* * *

بل إن مجازفات الدكتور سروش إزاء عروبة القرآن الكريم لتتجاوز المتعارف عليه إلى حد يوحي بإنكار نزوله باللسان العربي.. والادعاء بأن عروبته طارئة عليه: فيقول: « **إن القرآن تمظهر وتجلى باللغة العربية التي كانت لغة المحيط الثقافي للرسول** » [1]..

وهذه الدعوى – التي تعني أن القرآن لم يكن عربيًا، ثم تمظهر وتجلى باللغة العربية التي كانت لغة المحيط الثقافي للرسول –.. تنقض الدعوى الشاذة للدكتور سروش: أن القرآن « مُنتج نبوي »، إذا لو كان مُنتجًا نبويًا، أفرزه غليان شخصية النبي العارف، لما كان هناك شك في أصالة عربيته، إذ لم يكن هناك لغة أخرى للرسول ﷺ غير العربية..

ولكنها تناقضات « الهرطقات » عند الدكتور سروش !..

* * *

هكذا سار الدكتور عبد الكريم سروش على طريق التأويل، متحللًا من ضوابطه اللغوية والدينية.. فسقط في

---

(١) بسط التجربة النبوية (ص: ١٩٥).

نفق التأويل الوضعي الغربي اللاديني « الهيرمينوطيقا » Hermeneutics الذي يفرّغ الدين من حقائق الدين.. والذي لا يستبقي من الدين سوى « أوعية الألفاظ » - الوحي.. النبوة.. الرسالة - ليصب فيها المضامين المادية واللادينية، التي تثير العجب، بل والسخرية في كثير من الأحيان..

وحتى يستبيح هذا التأويل - الهيرمينوطيقا - حرمات النصوص على هذا النحو العبثي، اخترع أهله نظرية « موت المؤلف »، لتكون قراءة النص ليست بحثًا عن مقاصد المؤلف والمعاني التي أرادها للنص الذي أبدعه.. وإنما ليكون القارئ - أي قارئ.. وكل قارئ - مطلق الحرية في أن يريد بالنص ما يشاء!!..

ولقد طبّق أنصار « الهيرمينوطيقا » نظرية « موت المؤلف » هذه على النصوص الدينية، فاستباحوها، وأوّلوا حقائقها على هذا النحو الغريب والعجيب الذي رأيناه للدكتور عبد الكريم سروش.. ولأساتذته الذين أخذ عنهم - من مثل نصر أبو زيد، وحسن حنفي، ومحمد أركون..

* * *

• لقد جاءت المادية الجدلية - في الماركسية - لتقول:

« إن المادة مُستكفية بنفسها، مُستغنية عن خالق يُوجِدُها.. وأن الفكر كله - بما فيه الدين - هو انعكاس للواقع

الموضوعي.. وعلى هذا الواقع الموضوعي يرتفع بناء فوقي، سياسي وقانوني، واتجاهات مختلفة للفكر الاجتماعي جميعها انعكاس للبناء المادي والواقع الموضوعي »[1].

وبذلك فلسفت نظرية عزل السماء عن الأرض، وشرعت لنظرية موت مصدر النصوص الدينية.. وإهدار الضوابط لتأويل هذه النصوص..

• وجاء الدكتور نصر أبو زيد، فانطلق من الفلسفة المادية الماركسية - المادية الجدلية.. والمادية التاريخية - ليفسر الإسلام والوحي والنبوة.. فقال:

« إن النبوة تجربة خاصة، وحالة من حالات الفعالية الخلاقة، غير مفارقة للواقع، ولا متجاوزة لقوانينه.. إنها قوة مخيلة، تكون في الأنبياء أقوى منها عند من سواهم من البشر.. فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب.. يليه الصوفي.. ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب..

ولقد كان النبي نتاجًا للواقع الذي عاش فيه..

وإن النص القرآني نص بشري، تشكل من خلال الواقع الثقافي.. فكان الواقع فاعلاً والنص منفعلاً ومفعولاً، فهو مُنتَج ثقافي.. وديالكتيك صاعد، لم يسبق له وجود ميتافيزيقي على

---

(١) الموسوعة الفلسفية: وضع مجموعة من العلماء السوفييت - بإشراف: م. روزنتال ب. يودين، ترجمة: سمير كرم، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٤م).

تكوّنه في الواقع.. فالواقع أولًا.. والواقع ثانيًا.. والواقع أخيرًا.

كما أن القرآن – كخطاب بشري – هو خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا.. »[١].

• وسار الدكتور حسن حنفي على هذا الطريق.. فقال:

« إن النبوات، التي تتحدث عن إمكانية اتصال النبي بالله، وتبليغ رسالة منه، هي في الحقيقة مبحث في الإنسان كحلقة اتصال بين الفكر والواقع.. فهي ليست غيبية، بل حسّية.. والمعارف النبوية دنيوية حسّية..

وصفات الله السبع هي في حقيقة الأمر صفات إنسانية خالصة؛ فالإنسان هو العالم، والقادر، والحي، والسميع، والبصير، والمريد، والمتكلم.. وهذه الصفات في الإنسان ومنه على الحقيقة، وفي الله وإليه على المجاز..

وذات الله المطلق هي ذاتنا نحو المطلق.. فالإنسان يخلق جزءًا من ذاته ويؤلّهه، أي أنه يخلق المؤلَّه على صورته ومثاله.. ثم يعبده.. فالذات الإلهية هي الذات الإنسانية في أكمل صورها.. وتصور الله على أنه موجود كامل هو في الحقيقة تعبير عن رغبة، وليس حكمًا على وجود في الخارج.. وأي دليل

---

(١) د. نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٠م) و: نقد الخطاب الديني، طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٢م)، وانظر كتابنا: التفسير الماركسي للإسلام، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٦م).

يكشف عن إثبات وجود الله إنما يكشف عن وعي مزيف..

والعقل ليس بحاجة إلى عون، وليس هناك ما يندّ عن العقل.. ويمكن معرفة الأخلاق بالفطرة.. فالوحي لا يعطي الإنسانية شيئًا لا تستطيع أن تكتشفه بنفسها من داخلها..

وإن مهمتنا أن ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد، فبدلاً من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله، تكون متمركزة على الإنسان.. وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان..

إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة، ومن الإيمان إلى العقل، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلي المستنير »[1].

* * *

• وجاء الدكتور عبد الكريم سروش - معلنًا انطلاقه من هذه المدرسة - ليغلف التفسير المادي للوحي والنبوة والدين بقشور « عرفانية باطنية ».. وليقول: « لقد كان النبي يمارس

---

(١) د. حسين حنفي، من العقيدة إلى الثورة (٢/٦٣٩)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٨م) و: دراسات إسلامية (ص ٣٠٠، ١٢٨)، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٢م)؛ وانظر كتابنا: قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

رياضة مدة أربعين سنة، ثم تجلت له حقيقة النبوة، وصار متورًا كبوذا - [!!] -..

وكما توسوس الشياطين للناس، فإن الأنبياء بدورهم يتعرضون لوسوسة المَلَك..

ولقد كانت شخصية النبي بمثابة الخزانة التي تحوي أسرارًا وعلومًا، وهذه الشخصية عندما تغلي وتفور يطفح الوحي الإلهي من مطاوي كلماتها.. فالوحي هو الكشف.. وهو نوع من الإدراك الخاص بالنبي.. وما يقدمه النبي من معارف الوحي للآخرين هو عبارة عن غليان بركان وجوده المؤيد والمسدَّد.. ولذلك فإن هذا الوحي تابع للنبي، وليس النبي بتابع الوحي.. فالوحي مُنتَج نبوي بشري.. والنبي هو المحيط بجميع الوجودات.. وهو الفاعل والآمر، لا المنفعل..

والقرآن - بكل وجوده وذاتياته وعرضياته - نص تاريخي.. ونحن لا نعثر فيه على عملية برهنة واستدلال إلا نادرًا..

وجميع الأحكام الفقهية في الإسلام - الشريعة الإسلامية - مؤقتة، وترتبط بالمجتمع العربي في صدر الإسلام.. ولقد كان النبي هو المشرّع.. والله يمضي تشريعات النبي.. وكل ما يتعلق بولاية النبي، من الحق والحجة الإلهية، وأمر الله قد انتهى وانقطع بوفاة النبي وختم النبوة »!!..

* * *

تلك هي قصة
التأويل المادي – والعبثي –
لحقائق الدين.. وهذا هو موقع
الدكتور عبد الكريم سروش من هذا
التأويل العبثي للوحي والنبوة والدين.. فهي
« مدرسة »، تدرّس هرطقاتها في عدد من
جامعات الإسلام.. وهكذا أصبح التأويل
العبثي « فنًا » ينافس « الجنون »
في القرن الواحد والعشرين!!



المصادر والمراجع

آرنولد - سير توماس: [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي - طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

ابن جني: [الخصائص] طبعة القاهرة، سنة (١٩١٣م).

ابن رشد: [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة دار المعارف - القاهرة، سنة (١٩٩٩م).

: [تهافت التهافت] طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٣م).

: [مناهج الأدلة في عقائد الملة] دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم - طبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة.

الأفغاني - جمال الدين - : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت، سنة (١٩٧٩م).

البيضاوي : [أنوار التنزيل وأسرار التأويل] طبعة القاهرة (١٣٤٤هـ/١٩٢٦م).

الجاحظ: [كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون - طبعة القاهرة - الثانية.

الجرجاني - الشريف - : [التعريفات] طبعة القاهرة، سنة (١٩٣٨م).

الجرجاني - عبد القاهر - : [إعجاز القرآن] تحقيق: محمود محمد شاكر - طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٠م).

الحارث المحاسبي : [مائية العقل ومعناه] تحقيق: حسين القوتلي – طبعة بيروت، سنة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

د. حسن حنفي : [من العقيدة إلى الثورة] طبعة القاهرة (١٩٨٨م).

: [دراسات إسلامية] طبعة بيروت، سنة (١٩٨٢م).

سانتيلانا – ديفيد : [القانون والمجتمع] بحث منشور ضمن كتاب [تراث الإسلام] ترجمة: جرجيس فتح الله – طبعة بيروت (١٩٧٢م).

سيزا قاسم : [القارئ والنص: العلامة والدلالة] طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٢م).

د. عبد الرحمن بدوي : [مذاهب الإسلاميين] طبعة بيروت (١٩٧٣م).

د. عبد الكريم سروش : [بسط التجربة النبوية] ترجمة: أحمد القبانجي – طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٩م).

د. علي حرب : صحيفة [الحياة] – لندن – في (١٨/١١/١٩٩٦م).

الغزالي – أبو حامد : [الاقتصاد في الاعتقاد] طبعة صبيح – القاهرة.

: [مشكاة الأنوار] طبعة القاهرة (١٩٠٧م).

: [رسالة الغزالي إلى ملك شاه في العقائد] طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٧م).

محمد عبده: : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م)، وطبعة دار الشروق – القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

د. محمد عمارة : [قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي] طبعة مكتبة الشروق الدولية – القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

: [التفسير الماركسي للإسلام] طبعة دار الشروق – القاهرة، سنة (١٩٩٦م).

: [مقام العقل في الإسلام] طبعة نهضة مصر - القاهرة (٢٠٠٧م).

: [الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية] طبعة دار الشروق - القاهرة، سنة (١٤٢٧هـ/٢٠٠٣م).

: [المنهاج العقلي في دراسات العربية] طبعة نهضة مصر - القاهرة (١٩٩٨م).

د. نصر حامد أبو زيد : [مفهوم النص] طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٠م).

: [نقد الخطاب الديني] طبعة القاهرة، سنة (١٩٩٢م).

موسوعات:

[الموسوعة الفلسفية] - وضع عدد من العلماء السوفييت - بإشراف: أ. روزنتال ب. يودين - ترجمة: سمير كرم - طبعة بيروت، سنة (١٩٧٤م).

* * *

الكتاب في سطور

إن من يريد الفكاك من مقاصد النصوص المقدسة.. إما لعدم الإيمان بقداستها.. أو لانحرافات فكرية ومذهبية.. أو لغير ذلك، يتخذ التأويل الذي يصرف الكلمات عن معانيها الظاهرة إلى معانيها المجازية والباطنة- سبيلًا للفكاك من المقاصد والتكاليف التي جاءت فيها.. ولقد انطلق عدد من الكتّاب المسلمين - دعاة التنوير الغربي والفلسفة الوضعية اللادينية - من نظرية " موت المؤلف " وأنسنة الدين والقرآن الكريم والوحي والنبوة، إلى ألوان من التفسير المادي للوحي والنبوة والدين، بلغت في الغلو والغرابة والشذوذ الحدَّ الذي نافست فيه التأويلاتِ الباطنيةَ القديمة.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٩١٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

